

الشاعر الانجليزي بيرون^(١)

Byron

(١٧٨٨ - ١٨٢٤)

للأستاذ خليل هنداوي

روح هائمة ونفس معذبة طفت عليها الشك في جميع أدوارها ،
فارتشت واضطربت وجدفت ، وما يجدفها إلا صدى تلك الحزقة
المتيبة في قلب الشاعر الذي يريد أن يزعج ذلك النطاء عن الحقيقة
المحتجبة .

قضى الشاعر طفولته الأولى حراً لا تفرعه عصا الأبوة ، لأنه
نشأ تحت رعاية أم كثيرة الاشفاق عليه ، دخل المدرسة وشيطان
الشعر والفن أخذ يوسوس له ويقويه وهو لا يلبس أردية الشباب ،
فأنفق أيامه يزجي الفراغ متسلماً بالنظم لاهياً بالطرب . وفي هذا
العمر الزاهي تنرب إليه الشك ودعاه زهوه إلى الجحود ، فجدد
باليوم الآخر وحطم قيود التقاليد . ولكن سرعان ما أعياه
التفكير في حقائق الوجود وكما أعيث من قبله ؛ فتعب من نفسه
وهو الرقيق النفس ، وتعب من الناس وهو ذو الروح الشاعر .
هجر وطنه وفي خلال هذه الهجرة بدأ ينظم مقطوعته الخالدة
« طواف شيلد هارولد »

ومن هو هارولد ؟ « هارولد عرفه الناس شر من جاور
الناس ، يعيش مستقلاً عنهم مزهواً بياسه ، يعرف كيف يتلصق
الحياة في زوايا نفسه . كذلك الكلداني الذي أرسل عينيه في النجوم ،
وما زال يحدق فيها حتى أسكن نجومها المضيئة كائنات مثلها مضيئة ،
فإذا استطاع أن يرق بنفسه في هذا الأوج كان سعيداً ، ولكن
الطين الذي جيل منه يتقل عليه ، وتراه — وهو الراغب في
النور الساطع — يبتنى أن يهدم السد الذي يحول بيننا وبين
السماء ، تلك السماء التي تتفتح لنا في أعاليها عوالم مضيئة . وانه

(١) نصرنا في العدد ٥٩ الجزء الثاني من هذه المقالة قبل أن نقرر
جزءها الأول لأنه قد فُقد بالبريد ، وقد أرسلنا الأستاذ الكاتب صورة
اليوم فعدنا لنقرر (الرسالة)

لهائم في منازل بني الانسان يظلب عليه القلق ويزعجه التعب ؛
مظلم النفس كثير الهم كاسف اللون كالصقر نلهيض الجناح لا يجده
وطناً إلا القضاء الفسيح ، فيأخذه هيمان يثبتته عقله ، فهو يريد
انقائه منه ، فيهبج ويدأب كالطائر الذي يفرغ قضبان قصصه
فيصبع كساءه بدمائه ، ونفسه السجينة المضطربة أخذت ترشف
هذه الدماء ، دماء قلبه»

فأى فتى يتوارى وراء هذه الأبيات ؟ هل هو غير الشاعر ؟
وكل من قدر له أن يتذوق ما وراءها من بأس ومرارة يحس أن
الشاعر لا يستطيع أن يخرج عن نفسه ، لأنه يستمد كل عوامل
نظمه من نفسه ، فلندعه يخلق الأشخاص ويولد الأبطال . فلن
نرى وراء هؤلاء كلهم ناطقاً غير الشاعر ، ولا قانطاً غير الشاعر ،
فهو ذلك الفتى النبيل الذي غامر في ملذاته حتى عاده السأم ، والسأم
داه يقتل في السررات كما يقتل في الأشجان ، فتراه يهجر عالم الانسان
كالسحور « هائماً وراء أحلام مقلمة ، يخنقه السرور ويهفو إلى
الشقاء والحزن لأنه يجد فيهما مروحاً عن نفسه ، متاذراً وطنه ،
حاملاً معه إلى المواطن التي وطئها — وهي مواطن الانس ومرابع
الزهره — فكرته التي تسي وراءها كأنها شيطان لاحق به (١) »
عرج على الاندلس ونزل في (أثينا) مدينة الفلسفة ، وهناك
استفزته هذه المشاهد التي تحمل طياتها التراث الفكري الذي
استلمه الحاضر من النابر . وهذه المشاهد هي التي أوحى إلى
(رينان) (٢) صلاته الخالدة ، ونجرت في قلب (شاوريان) (٣)
ينابيع العاطفة والتصور . هنالك وقف (بيرون) ازاء هذه الآلهة
المتأثرة على الحضيض ، فسخر من الآلهة الوجود والآلهة المفقود .
يا ابن يوم واحد ! أهض وادن مني
أنظر إلى هذا الكان . . . هو وطن شعب ، ومأوى آلهة
تبعثت هيا كلهم .

الآلهة نفسها تتلاشى ، ولنكل شريعة أجلها !

(١) Taine : تاريخ الأدب الانجليزي

(٢) اشارة إلى صلاة هذا الفيلسوف على الأكربول . وهي المقطوعة
الأولى والاحيرة التي ظهر بها (رينان) شاعراً عميقاً تجرد من اقال الفكر
وتابع صوت العاطفة .

(٣) هو ألكاتب الوجداني الذي مهد الطريق بكتابه للمدرسة
الرومانتيقية .

تتصاعد مني عليك . أنا لا أستطيع أن أنساك ، لأنني أجد ما حولي ظلمات متراكماً بعضها على بعض ، لاشيء أعز على قلبي منك يا شعاع الماضي .

وكتب وهو في فينوس « إنني سأنتفخ شبابي حتى ينفد ، وبعدئذ أقول : عمى مساء أيتها الحياة ، فقد عشت وكنت سروراً . »

ولكن ياله من سرور ! وهو القائل « أتيقظ في كل صباح - وبى ياس وسامة من كل شيء ، حتى من الذي يظن سهدى بالسرور . »

يمّ يشكو الشاعر؟ وما هي الأسباب التي أورثت قلبه هذه السامة وهو ممن لم توزم أسباب الهناء ، ولا ممن نزلت بهم حوادث الدهر ، وهذه المواطن التي جابها في سياحاته تشق البائسين وتداوى أصحاب الهموم ، ميدان الهوى أمله رحب الفناء ، ومجال الحرية والمجد والبراعة واسع الفسحة ، فأية سعادة يطلبها ، ويلج في تناولها ، ويشق نفسه في تتبعها ، وأين يجب أن يتحرى عنها إذا لم يجدها هنالك ؟

قد علل بعض النقاد أسباب هذه المظاهر بانفهام نفسه بالسرور الذي يخلق السأم ، ولا يجب إذا قتل السرور الكثير صاحبه كما يقتل الحزن صاحبه ، ولتسمع الشاعر نفسه بطل هذه السامة قائلاً :

« وأأسفاه ! عواطفنا القوية تذوب ضائعة ، حيث لا تنتج إلا قفراً فارغاً ، ولا ينبت منها إلا أشواك مؤذية . . . ونبات بقدر ما يروق للعين منظره ، يؤذى القلب ويؤله . وأشجار يقطر منها السم القاتل ، هذه هي الأشجار التي تولد تحت أقدام الأهواء .

أيها الحب ! لست أنت من سكان هذا الوجود ! أيها الساروفيم الذي لا يرى ، نحن نؤمن بك . أنت شريعة أصحاب القلوب المنكسرة فيها ، هم الشهداء ، ولكن العين لا تراك ، ولن تراك بحقيقتك .

الحب هو هذيان ، وهو جنون الشباب ، لكن علاجه أمر من عذابه ، وعند ما نرى تلك الجواذب تتلاشى الواحدة بعد الثانية من أصنامنا الفرامية ، وعند ما نرى تلك الروعة التي كانت تتمثلها غيلتنا في حالة التسامي قد زالت ، فسرعان ما يذهب هذا

بالأمس ساد (جوييتر) واليوم يمود (محمد)^(١) والمصور الآتية ستخذ لها من مذاهب القوم مذهباً حتى يجي ، عصر يجد فيه الانسان أن ما يضره من بحور ويهدره من أضاحي يذهب عبثاً !

أيها الولد الحقير ! يا قذفة الشك والموت ! يا من يتوكأ رجاؤه على أقدام من قصب . . . ! »

وقف الشاعر إزاء (البريتون) وتحت قبة النقوبة فرحب بالمدم وجعل عصره خير عصر لنا وغده خير غد لنا . فقال : « هاهنا قبة العقل ، هاهنا ماوى النفس . كل ما كتبه القديسون والسفسطائيون والعقلاء ، أقدر على أن يعمر هذا الجوب المنزل ؟ ألا إن الراحة تنتظرنا على شواطئ (الاشيرون) . هنالك لا يكره الذي شبع من الحياة على ان يستوى على هذه المأدبة العلة ، ولكن السكون بعد ذلك الرقد الذي يحمل للجالس عليه السبات الأبدى »

ولكن ييرون لم يكن بذلك الجاحد الذي استراح ضميره وأراح ، فالخيرة لا تزال تغشاه ، والتردد لا يزال يطغى عليه كأنما اتسع قلبه لتواضع بأكل بعضها بعضاً ، ويدمر بعضها بعضاً ، شأن الذي يركبه الشك ، ويتوارى عنه اليقين . وإنما يتميز ييرون من غيره من شعراء الشك بثورة دامية في نفسه يُقدم وقودها من قلبه ليحرق بها قلبه ، وهو قلب قتله الظلمة إلى اللانهاية ، هذا الظلمة الذي عجزت عن إطفائه سواقي الأرض .

قال (لامبيني) لزملائه يوماً : أتمرفون ماذا جعل الانسان أشقى الكائنات ؟ هذا لأن له قدماً وضعها في العالم التناهي ، وأخرى في العالم اللامتناهي ، وهذه هي حالة ييرون .

ولكن وجه الغرابة في ثورة ييرون أنها اضطربت في صدره ولما يبلغ الثامنة عشرة ، وحق لمثل هذه الثورات أن تشور على مهل لأنها تأخذ غذاءها من العاطفة لا من العقل . وقد طغى اليأس عليه وهو ما زال في ميعه صباه ، ولكن قلبه يخفق ويخفق مملئاً « أن الشباب ولى ، وأن الحياة بليت ، وأن الرجاء نفسه قد أسدل على وجهه حجاباً . »

جاز ييرون بأحد القبور فقال : « يا أحلام طفولتي ! كم حسرة

(١) إشارة إلى الاثراك الذين كانوا يسيطرون على اليونان

حقيقة القلب . هذه الابتسامة هي تؤلف أهدوداً لدمة طاهرة
ستكيب »

لم يستطع أن يحمل نفسه فطارها في الأفاق يسلبها بالوحدة
فطابت له حياة منزلة تقصيه عن الناس في مواطن أهلة بالجيلال
التي يدعوها أصدقاءه ، منتحياً عن قوانين وحكومات أقسم
ليكرهها حتى يقضى نحبه .

وكان هذا الألم قد أكسبه قوة ومناعة « أما الجمل فانه يحني
ظهره تحت الحمل ثم يعيش ساكناً ، والذئب يموت ساكناً ، ونحن
الأولى نسمو جبلتنا على جبلتهم ، لتعلم أن تتألم مثلهم »

ويقول بلسان أحد أبطال روايته « إنني شبيه بهذه الريح
المشتعلة التي لا تسكن إلا الصحراء ، ولا تهب لواقفها إلا على
الرمال . . الأسد وحده أتمخذه لنفسه مثلاً » ويمثل هذا الكبرياء
حلى ييرون أبطال رواياته ، وجعلهم نافرين نافرين غير راضين عن
الوجود ، فأتمب نفسه كثيراً وأتمبهم كثيراً . فاذا كان القعود
عن الشيء يمدعجزاً فإن التحليق فوق حدود الامكان ماهو إلا
ضرب من ضروب المعجز ، وان يرفض الانسان الوجود رفضاً
باناً بحجة تقصه ، وان يهرب منه ومن اصحابه بداعي هذه الحججة
ها من نقائص النفس التي تستر معجزها وتردها وراء هذا
التهور الفارغ .

هذا هو الوجود ؛ إنف وجدت فيه الجميل فاملكه ، وإن
وجدت القبيح فحسنه وأسلحه ، وإياك ان تعف عن الأول بسبب
الثاني ، لأن قوانين الحياة قاسية تسحق من يحاول ان يسحقها .
هكذا أرادت أن تكون ، وهكذا تريد أن تعيش

وفي النهاية لا تجدى هذه الكبرياء شاعرنا شيئاً ، فهو تمس
يود أن يعترف بتقصه لأنه لا يستطيع أن يعيش كالجمل ساكناً
او يموت كالذئب صامتاً . فيقول :

« ما أشد تسمى الأيام أمست تجرى على وتيرة واحدة ، وليالي
أقضيها بالسهاد ، لا أخالط المجتمع البشري الا قليلاً ، اذا جاءني احد
منه لنت بالفرار . . إنها لحال مؤلة لا ينقذني منها إلا الجنون »

كل هذه الأهواء الصاخبة ، والأنات التصاعدة يرسلها
الشاعر وراء محبوبته ، الحقيقة . . ولكن أين يجدها ؟
فيلق قهراوت (بيروت)

الانجذاب عنا ، وبعد أن زرعتنا الريح لم نحصد إلا العاصفة .
يأتينا الذبول ونحن في فجر العمر . . . نشق ونسام ونسي
الى الغاية ، والغاية تمن في الفرار . . . وظمونا لا ينفع غلته
شيء . . . وفي اللحظة الأخيرة ، ونحن على حافة القبر يمودنا
خيال جميل هو خيال السعادة التي تخرينا عنها في مطالع الحياة ،
ولكنه زاد متخلفاً ، وجداد بالوصل حين لا ينفع الوصل ، فذوق
الشقاء مرتين . . .

الحب والطمع والبخل ، كل هؤلاء سيء ، ماهي إلا شهب
واحدة نحىء باسم واحد . والموت وحده هو الدخان القائم الذي
يطوق نارها . »

ما أدق هذه العواطف من القلب ، لأنها ماخرجت من
قلب إلا لتدخل في قلب . . . ولكن ييرون الظلم قلبه ماوجد
على الأرض إلا الظلام ؛ وما أبصر إلا خيال السعادة موليأمامه ،
فقيد الحقيقة - التي هي حقيقة الدهر - بهذا الخيال . وهو
الشاعر قبل أن يكون فيلسوفاً . ولكن هل كل جمال مآله الزوال؟
أكل حب يستق من نعمة واحدة ، فهناك أنواع كثيرة لجمال
يزول وجمال يبق ، وحب يتلاشى وحب يحيا ، فبأي نوع قيد
الشاعر سعادته ؟

ماهو حائر كيف يقضى أعوامه هنا ؟ وكيف يستقبل ذلك
العالم الهامد ؟ يأتيه الضجر فيدع أشخاصاً وأبطالاً تنلى فيهم
زعة الضجر لأنهم يستمدون عواطفهم من عاطفته .

فهذا (ما نفروود) يملك عليه السأم ، سأله الجنى : ماذا تمنى ؟
فأجاب : النسيان ، نسيان نفسي .

وهذا هارولد كان يدعى : « الفتى السائم من الوجود » وهذا
(جيور) كان لا يجيد أقفر من صحراء القلب الفارغ

وأخيراً آل به هذا الشك إلى جحود كل شيء ، فغلا قلبه
من الحب وفرغ من الأمل . واستحالت كل هذه الصفات
التييلة إلى كره للبشر ، وهل في استطاعة من كرههم وأوسمهم ذماً
أن يدلوا غللة قلبه نوراً إذا لم يكن النور ابن قلبه ؟

لنصغ إليه وهو يتحدثنا عن الناس « هل أعود إليهم ككرة ثانية
أنمجرى عما يرجوه قلب هادىء في هذه المواطن التي ينلب فيها
لإنهاك أصحابها في السكرات ، وحيث الضحكات ترتفع عبثاً لتخفي